

شرف عبد الحق\*

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله وصحبه والتابعين

مقدمة:

إن الحديث عن تاريخ مدينة وهران العتيقة، لا يجب أن يمر مرور الكرام دون أن نستحضر في ذاكرتنا مدرسة الباى، تلك المنشأة التراثية التي ومنذ تشييدها في البداية بأمر العساكر، على يدي الباى محمد بن عثمان الكبير، والتي اصطلاح على تسميتها بالمدرسة المحمدية "سبة إلى بانيها أبي الفتوح المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان، فاتح وهران"<sup>1</sup>، وهي تلعب الأدوار الأساسية، وكان لها صدى واسع في العالم العربي الإسلامي.

ورغم ما ذكره صاحب الثغر الجماني من أن "العلم كاد أن يتفجر من جوانبها"<sup>2</sup>، إلا أن التاريخ لم يرحمها. فقد انتقلت العاصمة من معسكر إلى وهران، وتوفي الأب الروحي لها الباى محمد بن عثمان، ونقص الاهتمام بها.

إلا أن هذه المدرسة<sup>3</sup>، وبعد انتقال العاصمة أضحت هناك بوهران تلعب دورا بارزا، وذلك لتوفرها على نخيرة علماء المنطقة وقتها.

مدرسة الباى بوهران:

وهي من أهم المدارس التي بناها الباى محمد بن عثمان الكبير بالغرب الجزائري بـ "حنق النطاح" سنة

\* أستاذ محاضر قسم التاريخ جامعة ابن خلدون تبارت

1207-1208هـ/1793م التي تعرف في وقتنا الحاضر بـ"جامع الباي". وتعتبر كذلك من أبرز المدارس العلمية في وقتها، حيث كانت تضم أساتذة أكفاء<sup>4</sup>، ولذلك لا غرابة أن تغص بطلبة العلم والمعرفة. وقد كان الباي يعتني بالعلم والعلماء. ولذلك عُرف عنه، تشييده المستمر للمدارس، التي كانت مقصد طلبة العلم من كل حذب وصوب، حيث هيا لهم المؤمن، والوسائل التي تساعد على طلب العلم.

وقد أورد صاحب طلوع سعد السعود نصا يصب في المصعب نفسه، مما جاء فيه: "وكان يحب الطلبة، ولذلك بنا لهم المدرستين: الأولى بالمعسكر، والثانية بوهران"<sup>5</sup>، وفي رواية أخرى: "وبنا (كذا) المدرسة الجليلة العظيمة بخندق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة"<sup>6</sup>.

كما كان يعظم العلماء، فشيّد لهم المساجد، ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والهدايا، التي يفاجئهم بها بمناسبة الأعياد والأفراح، ويكفي كدليل قاطع، وحجة دامغة على ذلك، ما ألّفه الحافظ أبو راس الناصر المعسكري في أخلاقه المرضية، وسيرته المحمودة، ألّف كتاب "عجائب الأسفار"، وكتاب "الثغر الجماني" لابن سحنون، و"الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية" لمصطفى ابن زرفة الدحاوي.<sup>7</sup>

ومن أهم العلوم التي كانت تدرّس بهذه المدرسة، كتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني والخرشي، وكتب النحو مثل شرح المكودي ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح المحلّي، وعدّة علوم أخرى كالنصوف، والفلك، والبيان.<sup>8</sup>

وبعد وفاة الباي محمد بن عثمان الكبير سنة 1213هـ/1798م ببلدة "صبيح" وهو في طريقه إلى الجزائر، دفن بمدرسته. إلا أنه وفي بداية الاحتلال اتخذ جنود الاحتلال مكان هذه المدرسة المباركة، حماما يستحمون فيه. ولهذا السبب طمس قبر الباي محمد بن عثمان.<sup>9</sup>

#### علماء مدرسة الباي:

إن الوثائق المخطوطة المتاحة، وعلى رأسها كتابات الحاج العربي المشرفي<sup>10</sup>، سمحت بالترجمة لبعض من درسوا بمدرسة الباي بوهران من سنة 1240هـ/ ماي 1824م إلى سنة 1246هـ/1830م، حيث ذكر صاحبها معلومات تاريخية نادرة لا نجد لها ذكرا في المصادر الأخرى.

ولا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا على الأقل، بالحديث عن العلماء الذين درسوا بهذه المدرسة في آخر أيامها، وذلك نظرا لفقد عدد مهم منها.

ورغم ذلك، فإن النزر القليل الذي وصلنا من كتابات الحاج العربي المشرفي، الذي كان أحد طلبة هذه المارسة. كان كافيا لجبر بعض انكسور التي أصابت تاريخ هذه الفترة، ذلك أنه دون الأحداث التي عاصرها وشاهدها بأمر عينيه، حيث ذكر وعرف بأبرز العلماء الذين تتلمذ لهم في هذه الفترة، وخاصة منهم علماء مدرسة الباي بوهران، في الفترة التي مكث بها (من سنة 1240هـ / 1824م إلى سنة 1245هـ / 1830م) بطلب العلم ويحصله.<sup>11</sup>

كما أن مراسلات الشيخ البوعبدلي مع الأستاذ سعد الله التي نشرت أخيرا ضمن كراسات المجلس الإسلامي الأعلى، وبعد اطلاعنا عليها، وجدنا فيها معلومات قيمة للغاية. ومن أهم العلماء الذين درّسوا بهذه المدرسة نذكر:

**1- الطاهر المشرفي:** هو ابن الشيخ عبد القادر، بن عبد الله، بن محمد المدعو بن دحّ المشرفي العسكري. أخذ العلم عن والده بمعسكر، ثم انتقل إلى فاس للدراسة. ومن شيوخه بالإجازة: عبد الله بن شقرون والطيب بن كيران. وكان للشيخ الطاهر بن الشيخ المشرفي ثبت يرويه العلماء ويتداولونه<sup>12</sup>، وهو الثبت الذي أجاز به تلميذه بن عبد الله سقاط.

وله عدة مؤلفات، منها شرح نظم والده "عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط"، وشرح "النصيحة الزروقوية" في التصوف. وصفه عبد الحي الكتاني بقوله: "العلامة الجليل قاضي وهران ودفنها على عهد الترك و شارح (النصيحة الزروقوية)".

وقد وصفه العربي المشرفي بالعلامة الماهر.<sup>13</sup> وقدّم لنا ترجمة هامة عنه، لا نجدها في أي مصدر آخر. فلأهميتها ننقلها كاملة من كتابه طرس الأخبار: "كان على منهاج والده وسمته، نقله ملك الأتراك إلّا، وهران للنفع به، فكانت العلماء تختلف علمي مجلسه العلمي، وقد جبره ملك الأتراك على القضاء بعد إياية منه وامتناع، فأحسن السياسة الشرعية، ولا يختلف اثنان في عدله، رتب له إمام الوقت ستين دينار ذهباً شهرية على قراءة التلخيص".

ويعد الشيخ الطاهر المشرفي، من أبرز علماء هذه المدرسة، حيث كان مرتبه الشهري على تدريس علم المعاني والبيان ستون ديناراً من الذهب يأخذها على مختصر السعد فقط. ومرتبه على تدريس النحو والتصريف، والفروع الفقهية كبير جداً.<sup>14</sup>

توفي بوهرا ن لكننا نجهل تاريخ الوفاة. ترك ولدان هما محمد بن الشيخ الطاهر ومصطفى بن الشيخ الطاهر.

**2- محمد بن عبد الله سقاط:** من كبار المحدثين والمسندين، زين العابدين المشرفي المعروف بسقاط، حفيد الشيخ عبد القادر المشرفي. وصفه الطيب بن المختار في كتابه "القول الأعم" بـ: "إمام الحديث". تعلم على يد شيوخ الناحية الغربية، أمثال الشيخ أبي راس أحمد الناصر المعسكري، ثم رحل إلى المشرق، وأخذ العلم به عن جملة من المشايخ، وأخذ الإجازة عنهم، في العلوم العقلية والنقلية. ومن أجازته، بالمشرق والمغرب نذكر:

- حسين بن مصطفى بن خليل التونسي.
- صالح بن حسين الكواشي التونسي.
- الهادي بن محمد الشريف الحسني.
- شرف الدين مفتاح الدين بن حسام الدين البخاري.
- محمد الشعب المديني.
- حسن كريت يلد رشيد، الذي أجازته في الطريقة الخلوتية.
- الشيخ محمد السعيد الملقب بالدرويش القادري، الذي أجازته في الطريقة القادرية.
- البناني المكّي المغربي.
- البناني، محمد بن محمد بن محمد العربي.
- محمد بن علي بن منصور الشنواني.
- محمد حسين الميقاتي السكندري المالكي.
- عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار المكّي.
- سيدي عمار بن محمد بن منصور القسنطيني.

وكان الشيخ سقاط، يحفظ صحيح البخاري، وصحيح مسلم بالإضافة إلى حفظ السير والتواريخ

وشيخ المذاهب، وفهرسته تشهد له بذلك. توفي رحمه الله بمكناس، وقيل مات مسموما.<sup>15</sup>

وقد ذكره العربي المشرفي قائلا: "شيخنا الحافظ، التابع لجادة الحجة شمس الدين، العلامة سيدي محمد بن عبد الله سقاط"<sup>16</sup>، "كان علما مشاركا في جميع الفنون"<sup>17</sup>. وهو من أبرز شيوخه، وأشدّهم تعلقا به، والبيت التالي يؤكد ذلك:<sup>18</sup>

وشيخنا عبد الله هو ابن عمنا \* قرطاس العلوم الماهر المتفنا

وقد كانت مجالسه بمدرسة الباي حافلة في سرد جامع البخاري والصحيح. كما انفرد بتدريس التفسير في المدرسة ذاتها لم يشاركه فيه أحد.

وتفيد العبارات التي أوردها المشرفي على علو كعبه، وغزارة علمه حين يقول: "قرأنا عليه الفقه وعلى غيره ممن عاصره، فلم نجد له بديلا في التحقيق، وقرأنا عليه علم العروض، فلم نجد فيها عدا غيره تحقيقه وتدقيقه، وما قرأناه عليه إلا مرة واحدة قراءة تحقيق، وأشرفنا على معانيه ودوائر أبحره".<sup>19</sup>

وقد ذكر العربي المشرفي في موضع آخر، نصا هو من الأهمية بمكان، يتحدث فيه عن مكارم هذا الشيخ وعلمه، نفضل أن نوردّه كاملا: "وكان رضي الله عنه شيخ الإسلام بوهران وأم العساكر، وكان يحضر مجلس تدريسه للفقه والنحو والتفسير خلق كثير، وجم غفير، ولم يشاركه في تدريس التفسير أحد، وكان يقتصر على مطالعة البيضاوي... وكان علماء الآفاق يحضرون مجلس درسه في التفسير إذا جاؤوا عند الباي للعيد بوهران، ويلقون عليه المسائل الغامضة، ويحييهم عنها جوابا بالغا مسكتا".<sup>20</sup>

**3- أحمد بن التهامي:** من علماء أولاد سيدي أحمد بن علي بمعسكر، من كبار علمائها الذين إليهم المفزع في المشكلات، وحل العويصة والمعضلات، وشيخ الجماعة بما على حد تعبير صاحب القول الأعم.

وهو والد مصطفى بن التهامي، الذي تزوج عمة الأمير عبد القادر. كان عالما فقيها، وذا جاه عريض، وقد عينه الأمير عبد القادر رئيسا لمجلسه الشوري العالي الأميري، وحسب رواية ابنه مصطفى، فإنه توفي بمصر خلال ذهابه للحج، خلال ثورة الأمير.<sup>21</sup>

تناه تلميذه العربي المشرفي بما يلي: "شيخ شيوخنا، العلامة الحنّ، وقمر الدين النّير، الذي إليه

المفزع في المشكلات، وحل العويصة والمعضلات، ذو الفضل السامي، السيد أحمد بن التهامي<sup>22</sup>، وحلّاه بقوله: "شيخ شيوخنا العلامة ذي الفضل السامي، سيدي أحمد بن التهامي الغريسي".<sup>23</sup>

ويستفاد مما أورده المشرفي كذلك، أن أحمد بن التهامي كان من علماء الفقه بمدرسة الباي بوهرا، حيث كان مجلسه غاصا بطلبة العلم، حيث كان يصل إلى خمسمائة طالب أحيانا، والألف طالب أحيانا أخرى، حيث كان يملئ من حفظه مسودة الخرشى من غير أن ينقص منها حرفا أو يزيد. <sup>24</sup>  
وتفيد مراسلات الدكتور سعد الله والشيخ البوعبدلي، حسب رواية هذا الأخير، أن أحمد بن التهامي كان مفتيا في وهران في عهد العثمانيين وبها توفي ودفن.<sup>25</sup>

**4- خليل الفرندي:** وقد كان من ضمن الثلاث الذين يشرفون على تدريس مختصر خليل<sup>26</sup>، وصفه المشرفي قائلا: "كان يعرف متشابهه - يقصد مختصر خليل - كما يعرف متشابه القرآن".<sup>27</sup>

**5- عبد القادر المستغانمي:** كان يشرف على تدريس علم الكلام، ومختصر الأخضري في المنطق، ومختصر السنوسي، تشهد بذلك عبارات المشرفي إذ يقول: "وقرأت على الثاني - يقصد عبد القادر المستغانمي - علم الكلام، ومختصر الأخضري في المنطق، ومختصر السنوسي".<sup>28</sup>

**6- محمد بن يوسف العامري الترابي:** وكان يشرف على تدريس المختصر (مختصر خليل).<sup>29</sup>

**7- محمد بن سعد التلمساني:** هو العلامة، محمد بن سعد بن الحاج الحسني البيدري التلمساني، من أعلام الفقه والحديث، والبلاغة بالجزائر، قبل الاحتلال. كان علامة، ماهرا، محققا. ولي القضاء بتلمسان على عهد الأتراك، وهاجر إلى فاس في مستهل شوال سنة 1275هـ / 1836م بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر.

توفي بفاس في 17 محرم 1264هـ / 25 ديسمبر 1847م. من آثاره: شرح على الهمزية، وشرح على الرسالة.<sup>30</sup>

وكان من المتصدرين في مدرسة الباي<sup>31</sup> لشرح البخاري سنة 1245هـ / 1829 - 1830م، وتفسير البيضاوي<sup>32</sup>، وحاشية الخفاجي<sup>33</sup>.

**8- محمد بن صابر المستغانمي:** وصفه العربي المشرفي بـ "العلامة الداهية، من تفتح له عن تدريس العلوم الشاهية، وصاغ في التصوير والسبك والصوغ الغساني جابر".<sup>34</sup>

**9- محمد بن عامر البرجي:** العلامة الزاهد، الورع العابد، ندبم الدفاتر، لا يرى إلا ساهرا وسامرا. وقد كان يدرّس مختصر خليل.<sup>35</sup>

10- السيد محمد بن حسن: مستشار الباي محمد بن عثمان. من بيت علم وصيانة، ونزاهة وأمانة، وبركة وخير، وقرى ومير، ومنصب كريم، وحسب حميم. كان رحمه الله ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم، ولا سيما الأدب فينسل إليه من كل حذب.

وليس بين أيدينا ما يؤكد على أن هذا الشيخ كان مدرسا بمدرسة الباي، سوى الإشارة الواردة بين طيبي كتاب "فتح الإله" للشيخ أبي راس، خلال زيارته لوهرا، مع أخريات القرن الثامن عشر. حيث جاء في فتح الإله ما يلي: "وكنت مرة قصدت وهران، وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال، عن لسان المقال... السيد محمد باي بن عثمان، أخلص الله جهاده... فقال لي لسان الدولة، وفارس الجولة، الذي عظم الله مكانه ورفعته... العالم الفقيه، الحبر النزيه، الأمثل الأفضل، الأحفل الأكمل، الأنبل، الأقبل، الأجل، ذو البلاغة والجزالة واللسن، السيد محمد بن حسن...".<sup>36</sup>

#### خاتمة:

وبذلك، يتضح أن مدرسة الباي بوهرا، قد لعبت دورا رياديا لا يستهان به، على مدار ما يزيد عن الثلاثين سنة، واحتضنت بين جنباتها أرمادة من العلماء الأفذاذ، الذين ذاع صيتهم في الأفطار وانتشر، وما جولات وصولات الشيخ سقاط المشرفي في المشرق والمغرب، التي أجاز فيها وأجيز، لدليل كاف على ذلك.

#### الهوامش:

- 1- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالخزانة الوطنية، رقم: 1632، ص: 178.
- 2- ابن سحنون، الثغر الجماني، ص: 127.
- 3- في سنة 1207هـ/ 1792م، بنا الباي قلعة البرج الأحمر، وبني مدرسة بـ"حنق النطاح" التي بها ضريحه. ينظر: أحمد ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة: عالم الكتب، 1969، ص: 29.
- 4- حمدادو بن عمر، أبو راس الناصر المعسكري وكتابات التاريخية، ص: 42.
- 5- ابن هطال، المصدر السابق، ص: 25.
- 6- المزاري، طلوع سعد السعود، ج 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، ص: 294.

- 7- ابن هطال، المصدر السابق، ص: 25-26.
- 8- حمدادو، المرجع السابق، ص: 43.
- 9- ابن هطال، المصدر السابق، ص: 24.
- 10- العربي المشرفي: هو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المعسكري الجزائري، المكنى بأبي حامد، من أبرز علماء الجزائر في القرن التاسع عشر. ولد مع بداية القرن التاسع عشر بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر. اشتهر بآليفه الكثيرة، التي اشتملت على عدة فنون، من تاريخ وأدب وسير وغيرها. توفي سنة 1895 بفاس بعد أن عمر حوالي تسعين سنة. ينظر: شرف عبد الحق، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفي 1895م "حياته وآثاره"، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2007.
- 11- العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.
- 12- المصدر نفسه، ج2، ص: 466.
- 13- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 8-9.
- 14- الرد على أبي راس، ص: 4.
- 15- الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 578.
- 16- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 8-9.
- 17- العربي المشرفي، ياقوتة النسب، ص: 20.
- 18- العربي المشرفي، أقوال المطاعين، ص: 34.
- 19- العربي المشرفي، الرد على أبي راس، ص: 10.
- 20- المصدر نفسه، ص: 11.
- 21- يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 247.
- 22- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 8-9.
- 23- ديوان نظم، و111و.
- 24- العربي المشرفي، ياقوتة النسب، ص: 25. ديوان نظم، و111و.
- 25- رسائل في التراث والثقافة، ص: 138.
- 26- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 9.

- 27- ديوان نظم، و111و.
- 28- المصدر نفسه، و111و.
- 29- المصدر نفسه، و111و.
- 30- ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات القرنين الثالث والرابع، ج7، ص: 2581.
- 31- ديوان نظم، و111ظ.
- 32- البضاوي: هو عبد الله عمر بن محمد بن علي المعروف بالبضاوي، المتوفي عام 685هـ أو 691هـ. من تأليفه: مختصر الكشاف، والمنهاج في الأصول وشرحه، وشرح المطالع في المنطق. ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة ج2، ص: 51.
- 33- الخفاجي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر أحد شيوخ الحنفية، ولد عام 979هـ/ 1571م، سمي بالخفاجي نسبة إلى قبيلة خفاجة. كان لغويا وأديبا مشاركا، توفي بمصر سنة 1069هـ/ 1659م. ينظر: كحالة، المرجع السابق، ج1، ص: 238.
- 34- العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 8.
- 35- العربي المشرفي، ديوان نظم، و111ظ.
- 36- أبو راس الناصر، فتح الإله ومنتبه في التحدث بفضل ربي ونعمته، تقديم وتحقيق محمد عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ب ط، 1990، ص: 100.

## مصادر ومراجع البحث:

- شرف عبد الحق، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفي 1895م "حياته وآثاره"، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2007.
- حمدادو بن عمر، أبو راس الناصر المعسكري وكتابات التاريخية، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2003م.
- أبو القاسم سعد الله، مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي 1907-1992م، كراسات المجلس، الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ع5، 2007.
- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالخزانة الوطنية، رقم: 1632.
- التنبكي أحمد بابا (عاش في القرن 11هـ/ 17م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004م.
- السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاؤه، ط1، 1964م، ج2.
- العربي المشرفي، الرد على أبي راس الناصر المعسكري، مخطوط بمكتبة بلقرد بوكعر، ولاية معسكر.
- العربي المشرفي، ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 5310.
- العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن أخبار الدول، مخطوط خ.ع رقم: 2956.
- العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، مخطوط بخزانة البشير المحمودي، البرج، معسكر.

- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993م، ب ط.
- المجلة الجزائرية للمخطوطات، مجلة علمية محكمة تصدر عن مثير مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، ع 2-3، 2004-2005.
- أحمد ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة: عالم الكتب، 1969.
- المزابي، طلوع سعد السعود، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.
- ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات القرنين الثالث والرابع، ج7، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تنسيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م.
- أبو راس الناصر، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تقديم وتحقيق محمد عبد الكريم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ب ط، 1990.